شعراء الموسم فى الميزان

نقد وتحليل

للأديب عباس حسان خضر

— ٢ —

صرعى الأغراض

تناول شعراء الموسم مختلف الأغراض ، فلم يكن منها فى صميم ما يحس به جمهور الشعب احساساً عميقاً شاملاً غير هذه القصيدة ، وقصيدة « وطنى » للأستاذ محمد الهياوى ، فلقد كانت هذه الصيحة التى أعلنها الأستاذ أحمد الزين حبيسة فى نفوس الكثيرين ، حتى لقد كانت زفرات الصعداء تقترن بتنفس الاعجاب ، ولقد تناول الأستاذ جزئيات الموضوع فى استقصاء وبيان لا يتأتيان لكاتب مطلق القلم من قيدى الوزن والقافية . استمع اليه يفند دعاوى العدل والمساواة والحضارة ، فى حجج بالغة :

لا يدعى العدل قوم فى عدالتهم ... صرعى الكفايات تشكو ظلم أهليها
ولا المساواة ، والأفهام لو وزنت ... مع الغباوة فيهم لا تساويها
ولا الحضارة من تجزى نوابغهم ... وحشية تسكن البيداء والتيها

والأستاذ الزين يأتى المعانى من أبوابها ، ويتناول مفاتيحها تناولاً حسناً ، ثم يجلوها فى ألفاظ عذبة مونقة ؛ يؤلف بين الشقائق ، ويجمع بين الأشباه والنظائر ، فلا تجد كلمة فى غير موضعها ، وإن ما يضطر اليه الشعراء من التقديم والتأخير وغيرها لا تجد له أثراً فى شعره ، وهذه قصيدة (صرعى الأغراض) التى نحن بصددها ، اقرأ مطلعها :

هات الدام ولا تسمع لشانيها ... إن الزمان يصافى من يصافيها

هل تستطيع أن تلفظ كلمة وتقف ؟ لا ، لا بد أن يجرى البيت كله على لسانك حتى لتشعر كأنه ليس مؤلفاً من كلمات ينفصل بعضها عن بعض

وفى الأبيات التالية تصوير يدل على المهارة الشعرية :

ملء المناصب منهومون قد جعلوا ... من دونها سد ذى القرنين يحميها
على مناعة ذاك السد تنفذه ... عصابة تتواصى فى حواشيها
من كل أخرق تنسل الحظوظ به ... الى المراتب يسمو فى مراقيها
خابى القوى عبقرى الجهل يثقله ... عبء الرياسة إذ يدعوه داعيها

فترى قد استوعب فى هذه القوالب الشعرية أكثر المعانى التى تتركب منها هذه الموصوفات ، وهذه غاية التصوير الشعرى ؛ وفى « عبقرى الجهل » ظرف كثير ، وقد أخذت هذه الكلمة سبيل الكلمات السائرة .

والقصيدة زاخرة بالمعانى ، منها ما هو عام يجول فى نفس الشاعر وفى نفوس غيره ، بيد أنه تفرد فى ترجمة المعنى وصوغه فى صور طريفة ، ومنها معان مبتكرة مضى اليها خياله سابقاً ، فمن النوع الأول قوله :

أرخصتمو غالى الأخلاق فى بلد ... لم تغل قيمته إلا بغاليها
يا رب نفس أضاء الطهر صفحتها ... أفسدتموها فزلت فى مهاويها
وكم قلوب كساها الحسن نضرته ... دنستموها فعاد الحسن تشويها
أغلقتمو سبل الأرزاق لم تدعوا ... لفاضل الخلق سعياً فى نواحيها
مدارس تغرس الأخلاق فى نشأ ... ومغلق الرزق بعد الغرس يذويها
لا تلح طالب رزق فى نقائصه ... إن الضرورات من أقوى دواعيها
ما أطهر الخلق المصرى لو طهرت ... تلك الرياسات من أهواء موحيها

ومن أبكار المعانى قوله فى الخمريات التى ابتدأ بها :

بكرا تدور على الندمان لابسة ... عقداً من الحبب الدرى زهيها
سرى شذاها فحيا أنفساً ضعفت ... من الهيام بها عن أن تحييها

فهذا « الزين » أول من يلبس الكأس عقداً ؛ والبيت الثانى اشتمل على معان لا يسلكها فى بيت واحد إلا شاعر فحل ، فالكأس ذات شذى يحيى الأنفس ، والأنفس تتأثر بالشذى حتى يستهلكها ، فما تعود قادرة على تحية الكأس الوافدة عليها يقدمها شذاها محيياً . وإليك هذين التشبيهين فى مواهب النوابغ :

جادوا بأعمارهم حتى لجاحدهم ... إن المواهب سلم فى أعاديها
كالشمس تقبس منها عين عابدها ... وترسل النور فى أجفان شانيها
والنفس ان ملئت بالود فاض على ... نفوس أعدائها بالود صافيها
كالسحب إذ ملئت بالغيث فاض على
جدب البلاد خلوف من هواميها

بعد أن تقرأ التشبيه الأول وتقضى حقه من الاعجاب قف هنيهة عند التشبيه الثانى ، وانظر قوة معانيه وكثرة أوجه الشبه فيه ، فالنفس المشبعة بالود كالسحب المشبعة بالغيث ، والنفوس

التى تجحدها كالأرض الجدب ، ومع هذا فالنفوس الخيرة تعلو علو السحب وتفيض على جاحديها بالود كما تفيض السحب على الجدب بالغيث

والزين أول من يطالب بدم قتلى المواهب فى قوله :

يا آخذين بقتل النفس قاتلها قتلى المواهب لم يسمع لشاكيها
كم للنبوغ دماء بينكم سفكت باسم المآرب لا اسم الله مجريها
هلا اقتصصتم لها من ظالم سافكها وقل فيما جناه قتل جانيها
أولى الورى بقصاص منه ذو غرض يخشى المواهب تخفيه فيخفيها

ويصور القاتل فى هذه الصورة النفسية البدعة يخفى المواهب بقتلها حتى لا تغطى عليه وتخمله

وهذه القصيدة من الشعر الذى يقال فيه : ألفاظه قوالب معانيه؛ فالمعنى يسابق اللفظ حتى يكاد يسبقه ، وأعتقد أن نجاحها — إذ كانت قصيدة الموسم غير منازعة — يرجع أكثره إلى شدة احساس الشاعر بمعانيها ، وصدورها من شعوره العميق فى ثوب من البيان السليم من التكلف والتعقيد

ويظهر أن حسن القصيدة شغلنى عما عساه أن يكون فيها من المآخذ ؛ وان كان الانصاف قد اقتضانى أن أبدى — ما استطعت — بعض حسناتها ، فان الانصاف نفسه يقتضينى أن أنظر الى الكفة الثانية ..

يقول :

كم للنبوغ دماء بينكم سفكت باسم المآرب لا اسم الله مجريها

يقال — مثلاً — : إن هذا الأثم ارتكب باسم المصلحة العامة ، أى أن المصلحة العامة اتخذت اسماً فحسب لتبرير الفعل ، وتكون الحقيقة أن هناك باعثاً على الفعل غير الذى اتخذ اسماً ؛ فالتعبير الذى فى البيت وهو أن الدماء سفكت باسم المآرب يفهم أن المآرب اتخذت اسماً فقط ، مع أنه يريد أن المآرب هى الباعث الحقيق على سفك دماء النبوغ

ويقول منددا باقامة الدور لحفظ الآثار :

ورافعين من البنيان شاهقه فيه التخاير قد صفت لرائيها

فبينا هو يغض من شأن الآثار ويقول عنها فى الأبيات التى قبل هذا البيت : خرق وخزفات .. إذ به يسميها ذخائر ! ولوصح عنده أنها ذخائر ونفائس لما كان هناك موضع للسخرية من الاهتمام بها ؛ على أنى لا أدرى لماذا يحمل الأستاذ الزين على الآثار هذه الحملة العنيفة ، هل العناية بها تمنع من تقدير ذوى المواهب؟

قد يقال : إن الشاعر لا يُنقَد فى رأيه ؛ ولو خالف به ما أجمع عليه الناس ، ما دام قد أخرج ما ذهب إليه مُخرَّج لطف وإبداع . هذا صحيح ولكن هذه القصيدة تعد من الشعر الكتابى الذى يمحص فيه الرأى ، لذلك ولأن القصيدة ذات أثر فى نفوس الجمهور أحب أن أناقش الشاعر فى رأيه هذا ، فماذا لو أنه جُمع بين العناية بالبحث عن الآثار القديمة وبين تقدير ذوى المواهب؟ على أن الأستاذ الزين نفسه يعمل فى البحث عن الآثار القديمة ، ويدأب فى دار الكتب على كشف كنوزها ، وينشئ لها من تحقيقه وتصحيحه ما يجدد باليها ويحفظ ، وهو الآن يعمل فى كتاب نهاية الأرب ، وهو أثر من الآثار الدرية القديمة

أفيجب أن يكف الأستاذ عن عمله هذا حتى يلتفت الناس إلى تقدير المواهب والعناية بالنوابغ ؟ أم هو رأى شاعر كالزهرة ينبغى مسها برفق لأن العنف بها يودى بنضرتها ...

فى قريتى

يتحدث الأستاذ أحمد الكاشف فى هذه القصيدة عن حاله فى قريته وما يتصل به فى غيرها حديثاً تنفحك منه ريح القطرة الحبيبة ، وتجد فيه روح الشعر الجاهلى المرسل على طبيعته لا يُعرِّج على عمق ولا رهق حساً ؛ فالشاعر يسترسل فى بيان ما يشعر به استرسال شعوره بما يترجم عنه ، وقد جاءت القصيدة مطبقة لكل ما يحيط بشاعر معمَّر مثل الكاشف قد طبع على الشعر ، ومر به من الحوادث ما يستفيد منه شاعر متيقظ الذهن ، يقيم فى قرية يطل منها على الحياة العامة فى سائر البلاد ؛ فهو يَطلعُ علينا بقوله :

جمعت فى العيد حولى سائر الآل وملتقى الآل حولى كل آمالى

ويعفى فى مثل هذه الديباجة العربية وهذا الأسلوب الجزل يعرض شأنه مع آله ، ويتمثل الأجيال المقبلة من النشء الذين يرعاهم ويعدهم للغد ، فى قوله :

كأننى — وهم فى الدار — مطلع منهم على أمم شتى وأجيال
أعدهم لغـــد والمقبلين غدا فى هذه الأرض أجنادى وأبطالى

ويصف حياته فى الريف واعتزاله فيه ، ثم يشكو من إهماله شكاية لا يلبث بعدها أن يعود إلى ذكر قناعته بما يزاوله فى الريف قائلاً :

إن لم يكن لى ديوان وحاشية يوما فحسبى محاريثى وأنوالى

وهو صاحب الشعر السياسى ، فلا بد أن يفخر بما أبداه فى شعره من الآراء النافعة فى الحياة السياسية عائباً على القوم إهمالهم له ، فيقول :

ألست ممن دعا الأحزاب فائتلفت إلى الذى فيه كانوا أمس عذالى
أرى المودة بالقنطار بينهمُ ولم أفز بينهم منها بمثقال

ثم يتكلم فى الحادثات الجارية الآن بين الجانبين : المصرى والبريطانى كلاما جامعاً ، على قصره ، ويصيب به الغرض ، فيقول :

ولم أزل بينهم للخصم متقيا دخائلاً هى فى ذهنى وفى بالى
أخشى على رسلهم نياته وهمُ منه أمام جلاميد وأدغال
وما تزال كما كانت سياسته يدور فيها بألوان وأشكال
وموضع الند أرجو عنده لهم لا موضع الصيد من أنياب رئبال

إلى أن يقول :

وكم يكون لهم من ضيقهم فرج كما تدافع أهوال بأهوال

ثم يعطف على إخوانه الشعراء فيتألم لعدم نيلهم ما يستحقون ، ويخاطبهم بقوله :

وتملكون من الدنيا سرائرها ولا تحلون منها الموضع العالى
وما يتاح لكم فى الأرض متسع كما يتاح لعراف ودجال

ثم يدفع ما يقال من انقضاء الشعر بعد شوق وحافظ بأن مصر ملأى بأشباههم من الشعراء ، وهو ، باعتزازه ، يرى فى أن هذا الكفاية ، إلى أن يقول فى ذلك :

إن لم ير الحى بعد الميت منزلة منهم فلا خير فى المحزون والسالى

والقصيدة — كما ترى — ليس لها وحدة ، ولا تدور حول فكرة ؛ وإنما موضوعها شاعر يقول فيما يحس به من الحياة الغروية ويعبر عما يخالجه نحو بعض الشؤون العامة ؛ وهى ممتعة مقنعة للنفس بما تتطلبه من الشعر ، وإن كان للناقد فيها مواقف للمؤاخذة

الشاعر قليل العناية بالملاءمة بين المعانى التى تناولها ، ففى القصيدة كثير من الأبيات التى يقول عن مثلها نقاد الأدب من القدماء : « أبناء علة » أى أنها متنافرة تنافر الاخوة غير الأشقاء مثل هذين البيتين :

لو كان للنبت احساس رأفت به وبت للنبت أيضاً غير أكال
كأنما قربتى ما دمت ساكنها ولاية وكأنى العمدة الوالى

وبينما تجده يمدح عشرة من يعاشرهم وما يلقاه فيها من عاطفة ، إذ بك تراه ينعى على قومه أنهم لا يساعدونه فى حمل أعبائه كما قام بأعبائهم ، وهوانه لديهم إلى أن يقول فى هذا :

ولو بليت بجبارين ما بلغوا مدى الأحبة من قهرى وإذلالى

فيبدو فى ذلك كأنه متناقض ؛ والواقع أنه يريد من الأولين الذين يبدى ارتياحه إلى عشرتهم — أبناء قريته ؛ أما الشكوى فمن عداهم من أبناء البلاد ، ولكنه لم يبين ، بل مزج الكلام وراح يتحدث عن الفريقين كأنهم فريق واحد !

قرأت هذا البيت :

أعدهم لند والقبلين غدا فى هذه الأرض أجنادى وأبطالى

فوقفت عند « أجنادى وأبطالى » ما شأنهم ؟ أيخبر بهم عن « القبلين » إذن يجب أن تكون « القبلون » ولكن فى الهامش أن الواو للعطف ، فيبقى « أجنادى وأبطالى » لا شأن لهم بما قبلهم ولا بما بعدهم

وهو يفسر هذا البيت :

ما أحسن الشمل أرعاه وأشهده لأمهات وآباء وأطفال

بما بعده :

فلا أرى فرقة فى الدهر قاطعة لمطمئن وخفاق وجوال
ولا يصاب هديل فى أليفته ولا الغضنفر فى غيل وأشبال

وعلماء الأدب يعدون من عيوب المعانى ألا يستكمل التفسير أفراد المفسَّر ؛ فهو قد بين شمل الآباء والأطفال بقوله : « ولا الغضنفر فى غيل وأشبال » ولم يأت بذكر الأمهات ، وزاد الأليفة

ويقول إنه يعيش بالبقل والفاكهة ، ولا يأكل اللحم رأفة بالحيوان إلى أن يقول :

وقد أقاتل للحى المسالم من طير ومن حيوان كل قتال
لو كان للنبت احساس رأفت به وبت للنبت أيضاً غير أكال

فكيف يرأف بالحيوان ثم يقاتل حيواناً آخر ، لو قال : « أدافع » بدل « أقاتل » لكان مقبولا . أما قتال الحيوان فلا تقتضيه الرأفة به . ويقول إنه لو كان للنبت احساس لم يأكله أيضاً ! إنه اذن لن يجد شيئاً يعيش به ، وماذا يفعل لو علم أن العلم الحديث أثبت أن للنبت احساساً ؟

وقال :

ولم أجد من وضيع الذكر خامله ماساءنى من رفيع الذكر مختال

قابل بين وضيع الذكر ورفيعه ، وهذه مقابلة صحيحة . أما المختال فلا يقابل خامل الذكر ، انما يقابل الخامل النابه

(يتبع) عباس محمود خضر